

البعد السوسيولوجي للتعريب

Exploring the Sociological Dimension of Arabization

هشام حسان

مخبر استراتيجيات الوقاية ومكافحة المخدرات في الجزائر

جامعة الجلفة (الجزائر)

hiche2410@yahoo.fr

عزلاوي عبد السلام *

مخبر استراتيجيات الوقاية ومكافحة المخدرات في الجزائر

جامعة الجلفة (الجزائر)

abdesslam.azlaoui@mail.univ-djelfa.dz

ملخص:	معلومات المقال
يهدف هذا البحث إلى تتبع ظاهرة التعريب، ومدى الصراع الذي تمثله الازدواجية القائمة واقعا، وإلى أي حد أثرت بشكل فعال على أزمة الهوية في الجزائر، حيث لم تستقر بعد على وضع لغوي واحد، فالصراع قائم بين العربية التي يرى ممثلوها أنه لا يمكن أن تتم أدنى تنمية اقتصادية أو تربوية ما لم تعد إلى مكانتها الطبيعية، باعتبارها قادرة على تحقيق الانسجام الاجتماعي، لما تملكه من جذور ثقافية وحضارية امتدت لقرون، وبين الفرنسية التي تشبثت بها فئة درست بالمدارس الفرنسية، وتشبعت بأطروحاتها، تراها أحد الروافد الثقافية التي لا يمكن التخلص منها دون التخلص من جزء ثقافي كبير يشكل بنية المجتمع الجزائري، مما شكل صراعا مجتمعيا من أجل الهوية والأصالة.	تاريخ الارسال: 2022/10/16 تاريخ القبول: 2023/02/25
	الكلمات المفتاحية: ✓ التعريب ✓ الهوية ✓ القومية ✓ الايديولوجيا
Abstract:	Article info
This research aims to examine the phenomenon of Arabization and the existing duality in reality, and to assess its impact on the identity crisis in Algeria, which has yet to reach a consensus on a single linguistic situation. The study argues that economic and educational development cannot be achieved without returning to Algeria's natural position, which embraces its cultural and civilizational roots that date back centuries. The conflicting views between those who advocate for French, as a result of their education in French schools and adherence to its ideals, and those who see it as an integral part of Algerian society's cultural heritage, have sparked a societal struggle for identity and authenticity. The research highlights the importance of achieving social harmony by recognizing and embracing Algeria's cultural diversity.	Received :16/10/2022 Accepted :25/02/2023
	Keywords: ✓ Arabization. ✓ Identify. ✓ Nationalism. ✓ Ideology

❖ **مقدمة:** يرى مندور (1974) أن ظهور الإسلام كان أهم حدث في تاريخ اللغة العربية، إذ انتشرت بانتشار الدين وتوسّعه، فهما متلازمان تلازم الضرورة، على أنها لسان وليست عرقاً، فقد قرر علماء العربية أن البلاد التي يغلب على سكانها اللسان العربي بلاد عربية، والذين صارت العربية لسانهم فهم عرب وإن تكن أصولهم أعجمية، يؤيد ذلك "ويلهلم همبولت" بقوله: "شكراً للغة التي صار فيها الإنسان إنساناً" (أورد في: مندور، 1974، صفحة 19)، فتعصب العرب للعربية لم يكن بسبب تعصبهم لجنسهم إلا في النادر القليل، وإنما تعصبوا لها لساناً وفصاحة لما تمثله من قداسة في نفوسهم تروى عنها الأعاجيب، إذ لا يقبلون لحناً يقع من كبرائهم أو حقرائهم، بل قد يصير مذمة في المجالس والأسواق، من ذلك ما روي عن الحجاج أنه نفى رجلاً دلّه على خطأ في تلاوته. يروى عن الحجاج بن يوسف الثقفي وكان من أفصح العرب انه كان يقرأ "أحب" بالرفع في الآية: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله}، ولم ينتبه إلى لحنه إلا بعد أن نبهه يحيى بن يعمر فنفاه إلى خراسان (أورد في: الشاطر، 1983، صفحة 11)، إذ الفصاحة حسب بن كثير (1420) عندهم شرف وإتقان العربية شرف، يقول ابن كثير: "فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة فكمل من كل الوجوه" (أورد في: بن كثير، 1420، صفحة 365، ج4).

لقد كان العرب مادة الإسلام الأولى ونواته الأساسية، نشره عبر أصقاع العالم بتنفيذا للأوامر الإلهية، فانكب على تعلم العربية كل معتنق للإسلام، محب للدين لأنها عنوانه وواجهته، على أنه (يحترم خصوصيات الأقوام الأخرى الثقافية والاجتماعية)، وأشار المشهداني (2018) أنه لم ينشأ تصادم اجتماعي في التاريخ الإسلامي، إلا من بعض الشعوبيين (الشعوبية: حركة اجتماعية قومية ظهرت بوادرها في العصر الأموي، يرى أتباعها أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم. وقد تصل إلى حد تفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم، نشأت كرد فعل مغالٍ لإحياء الدولة الأموية التعصب القبلي، حيث تعرض المسلمون غير العرب الموالي بفعل سياسة العودة إلى القبلية للتمييز، لكنها تحولت كما يقول علي شريعتي تدريجياً من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العجم على العرب وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة)، الذين هاجموا العروبة كعرق،

بينما أتقنوا العربية كلاماً وكتابة، وتفاخروا بمعرفة أسرارها ودقائقها، إذ كانت لغة العلم والحضارة والثقافة الإسلامية حينذاك، ثم إن الإقبال على طلبها من الديانة، فهي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب لإصلاح المعاش والمعاد كما قال الثعالبي (عبد الرحمن الثعالبي ولد 1384م بوادي يسر بمدينة يسر الواقعة حالياً بولاية بومرداس، وهذه المدينة هي موطن آبائه وأجداده الثعالبة، عاد بعد رحلة طويلة في طلب العلم والمعرفة إلى الجزائر زار خلالها بجاية وتونس والمغرب وتركيا والحجاز وتلمذ على كبار علمائها، فاهتم بالتأليف وصار يلقي دروسه بأكبر مساجد الجزائر آنذاك، ترك في هذا الحقل ما يزيد على تسعين مؤلفاً في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ والتراجم وغيرها، من أهمها تفسيره (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) توفي عام 1471م. ودفن في زاويته بالجزائر العاصمة حيث ضريحه بها إلى اليوم في مقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي)، فتكونت بذلك الأمة الإسلامية التي لسانها العربية ودينها الإسلام.

❖ **التعريب بعد الاستقلال:** يعرف وليام مارسي التعريب بأنه تبني اللغة العربية وممارستها كلسان الحديث والحضارة، وهو الانتماء إلى تلك الحضارة التي جعلت من العربية أداة التعبير واعتبار إنتاجها الأدبي والعلمي كثرات مجيد مشترك والنظر لأهم منجزاتهم كنماذج صالحة للتقليد، فالتعريب هو المؤلفات الخالصة القلبية بين وضع لغوي معين وبين مجموعة أدواق فنية وطموحات عاطفية وعادات ذهنية لا علاقة لها مطلقاً بعلم خصوصيات الشعوب أو الإثنوغرافيا وبعلم طبائع الإنسان أو الأنتروبولوجيا.

لقد صارت العربية لغة رسمية منذ الفتح الإسلامي (استمر فتح بلاد المغرب حوالي 70 عاماً، ابتداءً من سنة 21هـ إلى سنة 90هـ، وبناء عليه تكون الجزائر قد فتحت على يد الفاتح عقبة بن نافع، ثم زهير بن قيس، ثم حسان بن النعمان، ثم استمر فتح المغرب الإسلامي على يد القائد موسى بن نصير)، إذ إن كل الشعوب كما تقول المستشرق زيجريد هونكه: (التي حكمها العرب اتحدت بفضل اللغة العربية والدين الإسلامي، بتأثير قوة الشخصية العربية من ناحية، وتأثير الروح الإسلامية الفذة من ناحية أخرى، في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم) (أورد في: هونكه، 1993، ص 13-14)، ولم تنشأ هذه الظاهرة إلا بعد دخول الاحتلال الفرنسي الذي زرع استقرارها لينشأ بعد ذلك تيار قومي عروبي يناضل لإثبات عروبة المجتمع الجزائري، ويؤكد إن عملية التعريب قد بدأت بعد الاستقلال رداً على التشويهات اللغوية التي

ارتكبتها الاستعمار في حق المجتمع الجزائري حينما منع تعليم العربية، وسعى إلى خلق اثنيات داخل المجتمع الواحد، مُدّعيًا وجود ثقافة سابقة على الوجود العربي جرت إبادتها ومحوها، ولا يعنينا إثبات بطلان هذه الأطروحة بقدر ما يعنينا الكشف عن ظاهرة التعريب التي أرقت مسار المجتمع الجزائري، ليصبح الحديث عنها مشكلا بحد ذاته يستدعي أحيانا صراعا بين تيارين متناقضين لم يصلا بعد إلى أرضية تفاهم لحل هذا الإشكال.

سعى التيار العروبي حسب حالة (2018) من خلال الكثير من القرارات إلى اعتبار التعريب قضية أولى للدولة الجزائرية لاستكمال الاستقلال الوطني، وتحرير الثقافة والمدرسة من الهيمنة الثقافية. و اجمع الدارسون أن عملية التعريب في المدارس الجزائرية تمت على أربع مراحل هي:

- المرحلة الأولى 1962-1965: كان هدفها هدم ما بناه الاستعمار الفرنسي بإدخال العربية للتدريس بنسبة سبع ساعات في الأسبوع لإعطاء الطابع القومي للجزائر المستقلة.
 - المرحلة الثانية 1965-1978: تركزت على تدعيم المرحلة الأولى، وهي تعريب كامل للسنة الأولى والثانية.
 - المرحلة الثالثة 1979-1992: إقرار التعليم الأساسي، حيث مسايرة التوجه الاجتماعي والثقافي للمجتمع .
 - المرحلة الرابعة 1993-2008: تمثلت في تهميش التعريب وتجميده، وارتبط بذلك بالقرار السياسي وظهور الصراعات الإيديولوجية
- هذه العملية رغم تعدد مراحلها ، اصطدمت بعمليات مناهضة لوأد التعريب، تبنته أطراف نافذة في الإدارة الجزائرية تكونت بالمدارس الفرنسية وتشبعت بأطروحاتها، لتتولى إفشال أي محاولة لتعريب المدرسة والمجتمع.

أوضح سعد الله (1998) إن هذه العمليات المناهضة للتعريب قادتها نخبة فرانكفونية سعت إلى حماية مصالحها من خلال الإبقاء على هيمنة فرنسية وثقافة الآباء البيض (الآباء البيض Pères Blancs: جمعية إرسالية تبشيرية كاثوليكية، أسسها المطران شارل ألمان لافيغري، في الجزائر عام 1868م، تسميتها بالآباء البيض نسبة للثوب الأبيض الذي اتّخذوه زيا لهم انسجاما مع الزي التقليدي الذي كان يرتديه سكان شمال إفريقيا، تضمّ هذه الجمعية الكهنة والرهبان والتي لها قوانينها الخاصة بها حيث كانوا ينشطون في مناطق البربر بعناية

أكثر، وفي مدينة وهران إذ أنشأوا مدارس ضمن أنشطة أخرى غايتها نشر المسيحية في اوساط المسلمين.) ، الذين اقنعوا فئة بعدم جدوى العربية في العلوم والمعارف والإدارات. إن هذا الواقع كان مقصودا لإيصال التعريب إلى طريق مسدودة نتيجة افتعال شتى أنواع العراقيل (يعزو Gilbert Grandguillaume فشل سياسة التعريب بسبب أنها فقدت مصداقيتها لارتباطها بالحركة الإسلامية التي استخدمت أساتذة مستعربين لنشرها، والذين لم يعارضوا فقط اللغة الفرنسية، ولكن عارضوا أيضًا اللغات المنطوقة وخاصة البربر الذين عارضوا هذه السياسة بشكل أساسي.)، ليصبح أسيرا بين إصدار قرارات وقرارات مضادة شكل ظاهرة اجتماعية خضعت للكثير من الدراسات والبحوث تحت عناوين مختلفة، درست أسباب ودوافع ومآلات التعريب في الجزائر، وكشفت عن عدم وجود ما يبرر فشل هذه العملية، سوى عاملين أساسيين، كان أولهما وجود نخبة فرانكفونية تعارض عملية التعريب، وثانيها تيار عروبي لم يتفق بعد على برنامج لتنفيذ المشروع.

❖ **التعريب وايدولوجيا القومية:** يرى صابر أنه تم استعمال العربية لغة قومية في الوطن العربي كأداة للتعبير عن المفاهيم، واستخدمت في التعليم بجميع مراحله، وأدرجت كلسان البحث العلمي بمختلف فروعهِ وتخصصاته، وتم استخدامها لغة عمل في مؤسسات المجتمع العربي ومرافقه كافة (أورد في: صابر، 1982، ص 87)، والمتابع لهذا الجدل وفق الدوري (1988) يجد أنه قد قامت ظاهرتان بارزتان أولاهما انتشار الإسلام، وثانيتهما ظاهرة التعريب وما رافقها من توسع جغرافي وبشري للعرب (أورد في: الدوري، 1988، ص 61)، جعلت المنطقة عربية اللسان والدين والحضارة مع الحفاظ على بعض الخصوصيات المحلية التي سمح بها الإسلام، كونها لا تعارض مبادئه وأساسياته، ولم يكن للتعريب مفهوما واحدا، بل تعددت مفاهيمه بين المشرق والمغرب، إذ يعني "اتخاذ العربية خطابا، وقد يندرج إلى تمثيل الثقافة العربية، وقد يتجاوز ذلك ليتخطى حدود الانتساب والدخول في إطار العرب" (أورد في: الدوري، 1988، ص 61)، فسادت العربية استنادًا لسعدي (2018) بمكوناتها المغرب عموما، وامتزجت الأنساب والألسن في تناغم دام قرونا، ربما يعود ذلك إلى هجرات ما قبل الإسلام التي سهلت انتشار العربية، إذ حدث الوصل بين الفينيقية كعربية قديمة والعربية كلغة حديثة طورها القراءان الكريم (أورد في: سعدي، 2018، ص 15) الذي انتشر مع دخول الفاتحين.

يعتبر ركيبي (2000) أنه لم يخل الوضع من (صراع طويل بين من يؤمنون بالتعريب ومن يقفون ضده... كما تعرض أنصاره إلى حرب نفسية قاسية وصل إلى القدح في كفاءتهم..)(أورد في: ركيبي، 1986، ص10)، وأوضح الصيادي (2000) وقد تم هذا الصراع الذي زرع المستعمر بذوره، حيث كانت لسياسته التعليمية في الجزائر نتائج خطيرة، أفرزت نخبة فرانكفونية تشربت أطروحته، وتولت حماية الفرنسية نيابة عنه، لقد "أصر الغزو الثقافي منذ أن استقر الحكم الفرنسي بشمال إفريقيا، معتمدا على خلفية تاريخية تعود إلى الأحقاب الماضية، وتستند إلى إحياء الحضارة الرومانية الغابرة في الربوع المغربية"(أورد في:الصيادي، 2000، ص3)، وأضاف بنعمان (2008) وساهم في إبراز فئة غير عربية لتكريس ثنائية لغوية من شأنها قيادة الصراع اللغوي الاجتماعي، وظلت "فرنسة المغرب تسير بخطى حثيثة حيث لم تقتصر على الإعلانات وأسماء الشوارع فقط، وإنما استهدفت فرنسة الأجيال الناشئة)" تمثلت هذه الفرنسية في مدارس البعثة الثقافية الفرنسية حيث تجري فرنسة أبناء الطبقة البرجوازية لغة وفكرًا وعاطفة، وإعدادهم لتسلم مناصب كبرى حيث تلعب دورا في التتكر والعداء للحضارة العربية والإسلامية،، يتمثل الثاني في التعليم الرسمي العمومي الخاص بأبناء الشعب الذي تجري فرنستهم بنسبة 33% في الابتدائي حيث يتلقى 10 ساعات أسبوعيا بالفرنسية، و66% في الثانوي حيث يتلقى 20 ساعة بالفرنسية والذين ينحصر دورهم في أن يكونوا أعوانا للرؤساء في المكاتب الإدارية مساعدين في الخدمات العامة، وتتحوّل الفرنسية لغة للتخاطب بنسبة 100% للطبقة البرجوازية و 50% بين أبناء الطبقات الشعبية". جاء ذلك في منشور جريدة "الرأي" سنة 1997 (أورد في: بنعمان، 2008، ص28).

❖ التعريب والسياسة: يرى العسكري (2004) أنَّ العربية أصبحت في أزمة تعكس أزمة الوجود العربي الذي يفقد إلى حرية القرار، ويبنى بالتبعية والضعف الذي يسيطر على مؤسساته، وأصبح " الشارع خصوصا في مجال الاستخدامات اليومية، يتمثل في لغة هجين من الركاقة العربية والركاقة الأجنبية... أسماء سيئة الصياغة الفرنسية مكتوبة بلغة عربية بأخطاء إملائية جسيمة"، فالخلط المتعمد حسب الركيبي (1986) ينافي كل الحقائق الاجتماعية لأن ملف تسيير التعريب يسير في ضبابية بين مد وجزر، فالنخب الفرانكفونية لجأت إلى الالتفاف على القوانين، حيث "العراقيل التي توضع أمام التعريب اشد مما كانت عليه، فهي عراقيل مدروسة بعناية كبيرة من بعض خصومها"(أورد في: ركيبي، 1986،

(ص11)، ساعدهم تركزهم في أجهزة الدولة في إصدار قرار تجميده، متذرعين بأسباب لا تخلو من السفاهة لإبقاء الهيمنة الفرنسية، التي أخذت كما يقول Gilbert Grand guillaume بعد عام 1962 مكانها في التعليم والاستخدامات اليومية (Gilbert Grandguillaume في 25 يوليو 1932 في بيزانسون، قضى سنوات عديدة في البلدان الناطقة بالعربية، وهو الآن متقاعد من مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، حيث قاد ندوة حول أنثروبولوجيا العالم العربي وأشرف على أطروحات الدكتوراه. نشر كتابين: ندروما تطور المدينة، والتعريب والسياسة اللغوية في المغرب العربي، بالإضافة إلى العديد من المساهمات والمقالات). وصار الانفتاح على العالم الحديث من خلال الفرنسية، كان البلد بأكمله يعمل بالفرنسية: التدريس، الإدارة، البيئة، القطاع الاقتصادي، وبسبب توسع التعليم مع الاستقلال، أصبحت اللغة الفرنسية أكثر رسوخاً في الجزائر مما كانت عليه أثناء الاستعمار، مما حدا ببعض المفكرين مثل المهدي المنجرة إلى القول: "لا أقبل من أي أحد أن يقول أنها قضية بيداغوجية، وأن لنا مشاكل وأن التعريب صعب... ذهب الاستعمار وخلف أفراداً معينين قائمين بالعمل... يجب أن نتفق أنها قضية سياسية" (أورد في: منجرة، 1996)، وهذا يوضح لنا وفق بنعمان (2008) كيفية "طمس كل المعالم الشخصية العربية المسلمة المتميزة للشعب، وإزالة معالمها الثقافية ومحاربة اللغة العربية" (أورد في: بنعمان، 2008، ص38)، تم افتعال الصراع لمحاربة ما أراده المجتمع الجزائري لإعادة التعريب الذي ظل يتأرجح في ظل سياسة لغوية غائبة على المستوى القومي، أدت حسب العسكري (2004) إلى تعريب "متعثر يواجه معارضة شديدة من كثير من الأكاديميين، بل من قبل الرواد الثقافيين، وذلك برغم اللغة الأم في استيعاب المعرفة، خاصة مع تزايد أهمية موقع اللغة على خريطة المعرفة" (أورد في: العسكري، 2004، ص11)، ويعطينا المهدي المنجرة أمثلة للنجاح بالاعتماد على اللغة الأم مثل كوريا واليابان وتايوان وماليزيا لأنه "بدون اللغة الأم في تعليم العلوم لن يكون هناك تقدم حقيقي" (أورد في: منجرة، 1996).

❖ **التعريب والبعد التاريخي:** أشار مطلوب (1986) أنه لا يمكن التسليم بكون العرب أمة جاهلة، وأن العربية عجزت عن التفكير الفلسفي والعلوم، بل إنها حملت موروثة ثقافياً وحضارياً متنوعاً كان مصدراً علمياً للعالم الإسلامي والعربي، فلقد علموا (أن العربية موعلة في القدم لا يعرف أحد نشأتها الأولى، ومعظم ما قيل فيها لا يزال بعيداً عن التوثيق... وترجع الرواية

التاريخية العربية إلى النبي إسماعيل عليه السلام)(أورد في: مطلوب، 1986، ص115)، فلقد أوضح بنعمان (2008) أنهم عمدوا إلى إنشاء لهجات محلية تضيق عليها، واتهموا أنصارها بالتخلف والانغلاق والفقر العلمي والحضاري، بدعوى أنها لم تكن يوماً لغة حضارة وتقدم، والواقع أن دعواهم باطلة من وجوه كثيرة، يدفعهم الحقد عليها لإدراكهم أنها وسيلة العرب وغايتهم باعتبارها (عنوان السيادة ومرآة السياسة... ووسيلة نقل للمنجزات الحضارية للبشرية والقومية لأبناء الأمة الناطقة بها سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين..)(ومما جاء في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي اتخذته بالإجماع في دورتها الثامنة والعشرين لسنة (1973 م): إن اللغة العربية أدت دوراً مهماً في الحفاظ على حضارة الإنسان وتراثه الثقافي، وفي العمل على نشرهما) (أورد في: بنعمان، 2008، ص13)، فللعربية وفق العقاد (د.س) أثر متنوع ثري لا ينكره إلا جاهل لم يطلع على الحقائق التاريخية الثابتة التي (لا تحتاج إلى عناء طويل في إثباته، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثير من الأوروبيين والشرقيين، بل عند بعض العرب المحدثين موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض)(أورد في: العقاد، ص05)، فلقد أرادوا إيهام المجتمع العربي أنه عالة على الحضارة الأوروبية، استقوا معارفهم من مستشرقين مهدوا إلى الاستعمار الذي جاء من أجل النهضة والرقى، متناسين أن (أقدم الثقافات الثلاث هي العربية واليونانية والعبرانية، وأقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور الحديثة)(أورد في: العقاد، ص05).

يرى النص (2000) إن تاريخ العربية قديم ارتبط بإسماعيل عليه السلام إذ ورد أنه أخذها عن "جرهم" القبيلة التي ساكنته وصاهرته ("جرهم" قبيلة يمنية من العماليق عاصرت النبي إسماعيل عليه السلام وتزوج منهم، وهي إحدى القبائل البائدة، هاجرت من اليمن ونزلت بمكة، وتذكر بعض الأخبار أن جرهما كان أحد الرجال الست والثلاثين الذين كانوا مع نوح في السفينة وأنه كان يتكلم العربية، وكل من كنوا مع نوح يتكلمون السريانية)، على أنه حسب مطلوب (1986) قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن "أول من كتب العربية إسماعيل"(أورد في: مطلوب، 1986، ص115)، ولا يمكن أن تموت لغة بهذا القدم العريق من تراث وحضارة، وإلا كيف تسنى لها البقاء والاستمرار وغيرها لم يصمد أمام أقل مما تعرضت له بكثير.

❖ **التعريب والبعد الديني:** جاء الإسلام فأعطى اللغة العربية الحماية إذ نزل بحروفها وكلماتها، فتحصنت لأنها لغة القرآن والحديث الشريف، وتلقنها الصغار في المكاتب والدور، ليظهر شعاع الإسلام الباعث للحضارة العربية والحافظ لإرثها وثقافتها، فنجد (جوستاف لوبون يرى أن النقلة الكبرى التي شهدتها العالم العربي كانت بسبب اللسان العربي وانتشاره) (أورد في: فهمي و محمود، 2014، ص17)، وأما (آدم متر فقد رأى أن الصفة الضابطة ليس مرجعها إلى العربية، بل التصور الذي تبلور بفضل بعثة النبي ونزول القرآن الكريم)، والحاصل حسب الغنيمان (2019) أن هذه خاصية من خصائص العربية التي ارتبطت بوجود الإسلام، كما ارتبط الإسلام بوجود العربية، (وإذا كانت اللغة العربية لغة الدين الإسلامي فهي لغة الفكر والثقافة لما يزيد على المليار مسلم، فكل مسلم يستحسن أنه يتحدث باللغة العربية، ويلزمه ذلك في صلواته ودعواته وأذكاره، ولذلك كانت اللغة العربية هي ما يربط أبناء المسلمين مع بعضهم في شتى بقاع العالم).

خصوصية العربية أن القرآن الكريم كفل حمايتها وخلص مآثرها وتراثها، وطيب ذكرها، وأما مسألة ضعفها فكان بتخطيط فاعل يتمنى زوالها بتكبير مصدر مقاومتها للغزو الثقافي الحاصل، الذي تعمل العربية لنبذه وحماية تراثها ومقوماتها، لأن استقلالها يعني استقلال الأفراد في حرية تفكيرهم وابتكارهم برافدها القرآني الذي حتم على كل مسلم رفض الخضوع والاستسلام.

إن معرفة المستشرقين بمميزات العربية جاء بعد دراسات طويلة كثيفة قامت بها طلائع، توصلت إلى أنها لغة صيرت أطياف المجتمع أمة واحدة، فعمد الاحتلال إلى زرع الفرقة ومنع التعليم والتربية وهدم المساجد، وتزوير التاريخ وتحريف الوثائق من أجل القضاء على مقومات الهوية والشخصية الجزائرتين، لقد كتب ايميل درمانكهام "مقالا بمجلة "cahier du sud" يقول فيه: "وفتحت مدارس فرنسية بربرية يدرس فيها كل شيء إلا العربية والإسلام"، بل أعلن عنه صراحة "إن هدف فرنسا من السياسة البربرية هو أن تفرق لتسود وأن تخرج البربر من حظيرة القرآن" (أورد في: بوعياض، 1979، ص401)، ولقد اصدر قرارا عام 1904م ينص على عدم السماح لأي معلم أن يعلم مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي دون الحصول على رخصة، كما حظر استعمال اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية.

❖ **التعريب كمرجعية للأمة:** إن المجتمع الجزائري قد تكون من خلال امتزاج الاثنيات بعد دخول العرب على مراحل متعددة منذ الفتح الإسلامي، وامتزجت الأعراق بطرق شتى، منها المصاهرة ومنها المجاورة والاحتكاك، ومنها التعليم، بعد أن اقبل البربر على طلب العربية وعلومها، وبرزوا في علوم القرآن والسنة، فتبدلت المعتقدات والعوائد والثقافات، وتبنوا العربية لسانا بعدما صارت لغة الدولة وإدارتها، فتعرب المجتمع بعد ذلك في تركيب واحد بطابع عربي إسلامي.

وأشار مطلوب (1986) أنه لا يمكن إدراك مفهوم التعريب إلا إذا أدركنا قيمة اللغة العربية بالنسبة للأمة، (فحرص العرب على لغتهم ينطلق في كثير من أسبابه من الصورة الجليلة التي تحدد السمات المتميزة للإنسان العربي) (أورد في: مطلوب، 1986، ص145)، أي هي عامل الحفاظ على الشخصية والثقافة الإسلامية التي تعطيها السمات الخاصة وتمنعه الذوبان، وقد بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم.

لقد كانت العربية في حالتها الطبيعية في المجتمع الجزائري إلى أن اعتراها الضعف أثناء الخلافة العثمانية لطبيعة توجهاتهم العسكرية، فلم يعيروا اهتماما كبيرا لمسألة التعليم والفكر والعلوم بشكل عام، وقد وجد الاستعمار فرصة سانحة في هذا الضعف الثقافي والعلمي الموجود، فاستغل حالة الركود ليزيد بذلك إغلاق المدارس وتهديم المساجد وتحويلها إلى كنائس ومنع التعليم العربي، فازدادت الهوة بين المجتمع وعناصر هويته وثقافته التي تربطه بالأمة الإسلامية، يضاف إلى ذلك فرض الفرنسية على المجتمع الجزائري إدارة وكتابة وتعلما، مع ما أحدثه من إحياء للهجات محلية وإعطائها بعدا قوميا وثقافيا مزيفا، لمحاولة إبعاد اللغة العربية كونها وسيلة الاجتماع والاتحاد المجتمعي، والمعبر عن الترجمات الثقافية والحضارية والإسلامية، ولسان حاله الذي واجه به محاولات التفتيت والتمزيق في وجه المتربصين من دعاة التعريب الذين يسعون إلى إحداث صراع مجتمعي، وتصادم ثقافي عن طريق إحداث ازدواج لغوي وتعدد ثقافي من شأنه تفتيت الوحدة الاجتماعية والإسلامية.

❖ **سوسيولوجيا التعريب:** يعتبر زبادية (1988) إن عملية التعريب بمعناها السوسيولوجي الذي نسعى إلى تقديمه يشكل أهمية قصوى في سبيل إعادة الاندماج الاجتماعي الذي كان سائدا قبل الاحتلال الفرنسي، الذي هدف إلى تقسيم المجتمع الجزائري إلى اثنيات قضى عليها التعريب بفعل طوعي، ويسعى إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بغرس روح المساواة بين كل الأجناس إلا بالتقوى، وهي الحالة التي فرضها الدين الإسلامي توحيدا للصف ونشرا للسلام، ونفذهما المجتمع مختارا لما رأى من نتائج، وتصديقا لأوامر نزلت بذور الشقاق والصراعات التي عاشها المجتمع العربي قبل نزول القرآن، (لقد كانت للعرب قبل الإسلام لغتهم الموحدة، رغم وجود لهجات مختلفة ثم نزل الإسلام بلهجة قریش، فمكن لها أن تصبح اللغة المعتمدة الوحيدة والرسمية) (أورد في: زبادية، 1988، ص111)، ولم يكن ذلك هاما إذ المهم توحيد صفوف العرب تحت راية واحدة منعا لأي خلاف، ولا يعني هذا أن الإسلام يمنع التطلع إلى معرفة لغات أجنبية أخرى، بل حث على وجوب معرفتها، مع مراعاة اللغة العربية كلغة جامعة ووعاء للفكر والحضارة يصطف المجتمع خلفها منعا لأي خلاف ينتج بسبب اختلاف الجذور الثقافية التي قد تكون متناقضة دينا وحضارة.

فالتعريب وفق زبادية (1988) يقوم على إزالة المفهوم الثقافي القائم على العرقية المرفوضة في المفهوم الإسلامي، وقد جاء هادفا إلى إزالة كل الحواجز الاجتماعية المتمثلة في الخلاف العرقي والثقافي والحضاري الذي ساد البشرية، وصنفها إلى ألوان وأعراق، ثم ميز بينهم وفرق ألسنتهم وثقافتهم، لقد وضع الإسلام قانونا صارما لترقي سلم الأفضلية وهو درجة التقوى والإخلاص، ثم عرف العروبة بمفهومها الواسع، إذ كل من تكلم باللسان العربي فهو عربي ولا فرق، فتسيد المجتمع الإسلامي العالم علما وحكما وقيادة، ولم يحدث في تاريخه تمييز عرقي إلا في الحالات الشاذة التي رفضها المجتمع ولم يستحسنها، (لقد ارتبطت العربية بالإسلام في كل المناطق التي وصل إليها نفوذ الحضارة العربية الإسلامية) (أورد في: زبادية، 1988، ص112)، وصار التعليم قائما فيها على العربية والإسلام من أجل النهوض والتحرر إلى تكوين دولة إسلامية فرضت ثقافتها وحضارتها كبديل قومي لصالح المجتمعات المستعمرة، فالتعريب يمثل البديل الأمثل لكون اللغة القومية والوطنية تضمن المحافظة على الأفكار والتقاليد والتاريخ والدين، فاللغة حسب اللغويين تتكون من عاطفة وفكر لتصبح الوسيلة الوحيدة للتواصل الاجتماعي.

لقد كان التعريب استنادا للزبيري (د.س) استجابة طبيعية للواقع الاجتماعي والثقافي لأنه يشكل الهوية التي تجمع انتماءاته الحضارية، ومطلبا يحقق الأمن اللغوي الذي يحمي المجتمع من تفكك البنية الاجتماعية والتشتت النفسي والقيمي، الذي أقنعنا به المستعمر الفرنسي من حيث (إن اللغة الوطنية عاجزة عن مسايرة العلم والتكنولوجيا وعن التسيير واستيعاب التقنيات الجديدة)(أورد في: الزبيري، ص27)، لكن أوضح شريط (د.س) أصحاب الايدولوجيا الفرانكفونية (يعرفون أن اللغة العربية مهما كان عجزها الحالي عن استيعاب المصطلحات العالمية، فإنها سترتقي برقي مجتمعتها)(أورد في: شريط، ص31)، لأن هذا العجز حسب ما أشار إليه ركيبي (1986) مصطنع من فئة استحكمت في مفاصل الدولة، ومنعت التعريب حيث (هناك من دافع عنه كقضية قومية مثل القضايا الوطنية لا لمرحلة من المراحل)(أورد في: ركيبي، 1986، ص09)، إن التعريب قضية قومية ووطنية لا تزال مطلبا اجتماعيا لدى أفراد المجتمع الذين رأوه قضية أساسية للشخصية القومية فقاموا (دفاعا عنه وعن اللغة العربية بوصفها إحدى الاختيارات الوطنية التي لا رجعة فيها)(أورد في: ركيبي، 1986، ص10).

❖ **خاتمة:** اخذت قضية التعريب أبعادا مختلفة سياسية واجتماعية وثقافية، جعلت منه ظاهرة سعت الكثير من الدراسات والبحوث إلى توصيفها ورصد أسبابها، فأرّخ لها اجتماعيا وسوسيوولوجيا على أيدي دارسين من مشارب مختلفة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار. مما سبق يمكننا استنتاج أن هذه الظاهرة والتي هي في حقيقتها قضية بسيطة ومجردة، تتمثل في عودة العربية إلى مكانتها قبل حدوث الاحتلال، لأن الالتفاف حول مضمون التعريب وتشويهه، هو ضرب للجزر المشترك لهذا المجتمع الذي يتبنى الثقافة العربية والإسلامية كمرجعية تاريخية وثقافية، ارتبطت بشعائر الإسلام وعباداته وملازمة للفرائض وسائر الشعائر الدينية، يقول كارل بروكلمان (ولد كارل بروكلمان 1868م - 1956م، مستشرق ألماني وأكبر باحث عرفته الجامعات الأوروبية في النصف الأول من 20 القرن، بمجال تاريخ التراث العربي والدراسات السامية، حصل على الدكتوراه من جامعة ستراسبورغ في عام 1890، عمل أستاذا جامعيا في جامعات برلين وبرسلاو، ونشر له كتب مثل: نحو السريانية وآدابها 1899م، والمعجم السرياني 1928م، وكتاب تاريخ الأدب العربي 1898-1902م): بلغت العربية بفضل القرآن من

الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم.

لقد هدف المستعمر إلى زرع لغة وأفكار دخيلة من خلال مدارسه التبشيرية التي أنشأها لتؤسس لعملية تشويه كبرى على مستوى اللغة والدين، إذ عمدت إلى صنع تاريخ وعرقية لم تكن موجودة إلا في عقول المستشرقين الذين هدفوا إلى تفتيت الوحدة المجتمعية التي دامت قرونا ذابت فيها كل الفوارق والطبقات والنعرات الطائفية والدينية، ليتمكن للفرنسية التي أصبحت بعد الاستقلال أكثر رسوخا، ووسيلة الانفتاح على العالم الحديث، حسب غراند غيوم (2022) ليتم تمثيل اللغة الأم بواسطة اللهجات العربية واللهجات البربرية إذ البلد بأكمله يعمل بالفرنسية في التدريس والإدارة والبيئة والقطاع الاقتصادي.

لم يسلم المجتمع بهذا الوضع وقام بتأسيس المدارس وتأليف الكتب والمقالات لدحض شبهات المستشرقين والتمكين لعلوم العربية والإسلام للحفاظ على قيم المجتمع وثقافته، فلقد تشكل تيار مهمته الأساسية حماية تراث الأمة والمجتمع ضد دعاوى الاستعمار الرامي إلى محو كل ما يشير إلى وجود مجتمع جزائري ككيان مستقل، له تاريخ وثقافة ولغة بعيدا عما يراد له من ثقافة ولغة ودين، أن هذا الصراع متواصل بين أطراف يسعى كل منهما إلى ترسيخ مرجعيته وثقافته، وغرسها في عمق التفكير المجتمعي الجزائري، ليؤسس بذلك الهوية التي يريد، ثقافة أجنبية بلسان فرنسي مهيمن أو ثقافة عربية إسلامية منشودة.

❖ قائمة المراجع:

1. بن كثير، إسماعيل (1420). تفسير القرآن. دار طيبة للنشر.
2. بنعمان، احمد (2008). مستقبل اللغة العربية. الجزائر: دار الأمة.
3. بوعباد، الحسن (1979). الحركة الوطنية والظهير البربري. الدار البيضاء، المغرب: دار الطباعة.
4. حالة، خديجة (2018). تعريب المدرسة في الجزائر بعد الاستقلال (1962-2008). مجلة الحوار الفكري، 13، 309-331.
5. الدوري، عبد العزيز (1988). الإسلام وانتشار العربية والتعريب. مركز دراسات الوحدة العربية.
6. ركيبي، عبد الله (1986). عروبة الفكر والثقافة أولا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
7. زبادية، عبد القادر (1988). دور الإسلام والعربية لغة وثقافة. بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز الوحدة العربية. بيروت: القومية العربية والإسلام.
8. الزبيري، محمد العربي (د.س). الغزو الثقافي في الجزائر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
9. سعد الله، أبو القاسم (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
10. سعدي، عثمان (2018). البربر، الامازيغ، عرب عاربة. الجزائر: دار الأمة.

11. الشاطر، محمد (1983). الموجز في تاريخ النحو. مصر: مكتبة الكليات الأزهر.
12. شريط، عبد الله (د.س). نظرية حول سياسة التعليم والتعريب. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
13. صابر، محي الدين (1982). قضايا الثقافة العربية المعاصرة. تونس: الدار العربية للكتاب.
14. الصيادي، محمد المنجي (2000). التعريب في الوطن العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
15. العسكري، سليمان إبراهيم (2004). أزمة العربية أم أزمة التعريب. مجلة العربي، العدد 545، صص 8-21.
16. العقاد، عباس محمود (د.س). الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين. مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم.
17. غراند غيوم، جيلبار. الفرنكفونية في الجزائر، CNRS للنشر.
18. الغنيمان، حسان بن عبد الله (2019). خصائص اللغة العربية. حولية كلية العربية، 29، صص 8299-8352.
19. فهمي، خالد ومحمود، احمد (2014). مدخل إلى التراث العربي والإسلامي. مصر: تراث البحوث.
20. المشهداني، سعدون (2018). الشعوبية الجديدة الجذور الفكرية والعقائدية. عمان: دار ورد للنشر والتوزيع.
21. مطلوب، أحمد (1986). من خصائص اللغة العربية، اللغة العربية والوعي القومي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
22. منجرة، المهدي (1996). قضايا التربية والتعليم بالمغرب. مجلة عالم التربية، العدد 2 و3.
23. مندور، مصطفى (1974). اللغة بين الفعل والمغامرة. الإسكندرية، مصر.
24. النص، إحسان (2000). قبائل العرب، أنسابها وإعلامها. دمشق.
25. هونكه، زغريد. (1993). شمس العرب تسطع على الغرب ط8. (فاروق بيضون، وآخرون، المترجمون) بيروت: دار الجيل.